الشعر اللبناني باللغة الفرنسوية *

شارل قرم : الجبل الملهم
ميشال شيحا : بيت الحقول
ايلي تيان : القصر العجيب
هكتور خلاط : الارز والزنابق

بقلم سعيد عقل

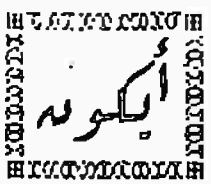

المعين الغربي أفعلَ في شاعريّة اللبناني من المعين العربي ؟ أيكون لبنان بلدًا حائرًا ، ولكنّه مرجّح الاتجاه إلى الغرب ؟ أيزول الاعتقاد بان ثمّة روحاً غربية وروحاً شرقية مُغلقتين الواحدة على الاخرى ؟ أم يقوم – بالعكس – اعتقاد بان اللغة العربية اروع اداة من الفرنسية في نظم الروح الانسانية التي لا تختلف ؟ ايكون بعض شعرائنا بالفرنسية ادركوا ما ظلّ حتى السنوات الاخيرة مغلقاً على زملائهم بالعربية كالابتكار ، والصدق ، وخرض المشكل الفلسفي العميق ، ووصف النفس البشرية ، والتغني بالوطن ؟ أنأملُ ، بعد شعرائنا الفرنسيين ، بشقّ الطريق إلى مصافّ الشعراء العالميين ؟ أم اننا ، بعد المقاطع الانسانية من « الجبل الملهم » ، في قلب الادب الانساني ؟

تلك اسئلة تصدّت لي وأنا اقرأ القرم وشيحا وزميليهما التيان وخلاط .

***

* Charles Corm, La Montagne inspirée. In-8°, 97 pp.
Michel Chiha, La maison des champs. In-8°, 96 pp.
Elie Tyane, Le Château Merveilleux. In-8°, 96 pp.
Hector Klat, Le Cèdre et les Lys. In-8°, 96 pp.
[*Les Auteurs Libanais de Langue Française*, 1, 2, 3, 4]. Editions de la Revue Phénicienne. Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1934 et 1935.

كان الشعر في لبنان، خلال السنوات العشر التي تلت الحرب، أرقى منه في اي بقعة عربية، وان ظهر شوقي على ما ظهر عليه من شهرة يجب ان لا نردها دائماً إلى الموقف الرفيع من شعره.

على ان هـذا التفوق اللبناني لا يجوز ان نراه إلّا على تواضع — وقل على اتضاع — إزاء الشعر الحق، فشعراء ذلك العهد كانوا بعدُ تحت تأثير اليازجي او من تيسر لهم ان يقرأوه من الشعراء القدم؛ تقوم مواضيعهم — ويا لاسف القرن العشرين! — على شعر الحفلات، من رثاء ومديح خلو اجتماعاً من اي عاطفة. وقد يتطور بعضهم إلى اسخف، فينشد في الحفلة «أقصوصة» يتعمد فيها الحزن، ولكنها لا تصف من العواطف البشرية حتى الحزن نفسه. وهي تدور أبداً على «واحد يحب واحدة» يقوم بينهما حاجزٌ مضحك يلقيان فيه الحتف، على حدّ ما تولده مخيلةٌ حبلى بقصة «بوليسية». واذا لم يكن الدافع الى النظم حفلةٌ ما، نشر لنا الشاعر نتفاً غنائية، تقوم على الغزل، فيصف الموقف منها عاطفتي الشوق او القنوط. واما الباقي فاحساسٌ بهيمي — إذا جاز ادخاله في الاحاسيس الشعرية — يقوم على الضم والشم والتقبيل وانعال المحبوبة كبد الشاعر، الى ما هنالك من الوتيرات التي ضرب عليها العرب الاقدمون. والعرب لم يكونوا يوماً مثالاً للشعر؛ وما عندهم من شعور وخيال، وان غير مشكوك به، هو نسبيّ يبدو ازاء الادب الحق ضئيلاً. فظاهر «شعورهم» في لـذة الحواسّ، ومرامي «خيالهم» في دائرة الحواسّ أيضاً. فهم لا يتصورون السماء إلّا حواريّ، ونهر عسل، ونهر لبن، وتفاحاً ورماناً، الى ما هنالك مما يشبع اللذة البهيمية او الجوف النهم.

واذا كان شعور الانسان المتزن على قوى ثلاث متزنة بين العقل والقلب والشهوة، فارى ان الاخيرة كانت المسيطرة عند العرب. وكيف تصلح مثلاً أعلى لتلامذة المرامي الانسانية والجمالية (Esthétique)؟

ويعجب المرء اذ يرى تقاعس الشعراء اللبنانيين — او الشرقيين عامةً — عن تثقيف انفسهم على الروح الانسانية. وتعليل ذلك ان القليل منهم من كان متضلعاً من الفرنسية او الانكليزية يتصل بالمحور الانساني. فبينما كان طاغور

في اقاصي الهند يدخل المسحة العالمية ، الى جنب ڤاليري ، كان الشاعر اللبناني وبالتالي العربي يعيش في لبنان ، ويخفق قلبه للحجاز ، يتفيأ الارز والصنوبر والشربين اظلالاً واندا. ، ويتغنى بالبيداء ، يرغ انظاره على زرقة السماء في لبنان او احمرار الشفق في خليج القديس جرجس ، يرغه على شروق الشمس فوق اللقالوق او حرمون ، ويشبه الخدَّ بالتفاح والصدر بالرمان والعين بالنرجس شأنَ البدوي الذي لم يرَ هذه الفاكهة الا كل حول ، تغمرهُ بيروت ، بما فيها من اهل وانس وجمالات ، ويتغنى بالجؤذر والغزال والمهاة ، الحيوانات التي لم يرها في حياته. والتي لم يكن سواها ليؤنس البدوي في قفره ، فيشبه بها المحبوبة ، يعيش على شاطئ بيروت ولا يصف البحر ببيت شعر.

ان الشاعر اللبناني كان منا ، « وكان لسانه يلعلعُ علينا » بما يسرقه من ريق البدوي ، كان يدعى الشاعر الذي يُجمّلُ (idéalise) ما حوله من طبيعة ونفس ، وفي الواقع كان السارق الذي يلوي في الليل على دواوين البدو ، فيسرقها سرّاً ، او يهضمها ويجترها جهاراً . كان غير شخصي ، وغير مبتكر وكان في غير دائرته يحتار ويحير ، واخيراً يستدعي الشفقة.

تلك كانت حالة الشعر عندنا في السنوات التي تلت الحرب الكبرى وذلك كان مين ادبنا.

وانقضى الربع الاول من القرن العشرين ، ودخل الشعراء الشباب غمرة الادب الانساني على يد الفرنسية خاصةً ، فبدأت منتوجاتهم تبشر بالعهد الجديد.

وبينما كان هذا التطوّر يكتمل عند شعرائنا باللغة العربية ، كان نفرٌ لم يتأثروا « بالشرق - الكتب » وان عبدوا « الشرق - الطبيعية » ، لم يُتقنوا اللغة العربية ، وان أتقنوا عشق بلادهم .. فعادوا ، اذا ينظمون ، فانما يصبّون على الورق شعورهم هم ، واذا يتغنون بالشرق فمن حب مخلص.

هؤلاء شعراء لبنان باللغة الفرنسية. احبوا الشرق في جزئه لبنان فانعكس في قصائدهم حيًا بأرزه وسهله وأطلّ باساطيره ، وتاريخه ، وتمنى بآمال اهله ، وجاش بمواطفهم.

وهؤلاء الشعراء زجّوا رأسهم في العالم ، فوسّعوا بذلك دائرتهم ، وتطلّعوا

الى المشاكل الفلسفية.

ان الادب العالمي ، لا يقوم ، كما يتوهم البعض ، بان يصف اللبناني فرنسة او افريقية ، او الفرنسي لبنان او الهند ، بل يقوم بوصف ما هو فوق الزمان والمكان ، يقوم « بوصف النفس » — والنفس واحدة في العالم .

***

والآن ننتقل الى درس شعرائنا الفرنسيين في موضوعاتهم ، وشاعريتهم ، ونظمهم :

« الجبل الملهم » والصلاة سواء.

ولا اعرف شعرًا عندنا تصدق فيه هذه الكلمة كشعر شارل قرم.

اما الصلاة فروح الشعر ابدًا . كلمة قالتها السيدة ده ستال منذ اكثر من قرن ، ورددها كبار الشعر النظريين في الشعراء كهنري برومون صاحب « الشعر الصافي » . فقال : « يقتضي للشعر ، فيما يقتضي ، سحرٌ سرّي يصل الى الصلاة » . و« الجبل الملهم » ثلاثة اناشيد : « قول الحماسة » و« قول الاحتضار » و« قول الذكرى » .

في الاول صورة شعب يهب بأسره الى ملاقاة فرنسة يرى النور والحياة على يدها رؤية المؤمن للسعادة الابدية.

يصف القرم هذا الشعب فردًا فردًا بما هو اقرب الى عمل الحاسب منه الى روح الفنّان ، وهذه الطريقة تضعف العمل الجمالي في النشيد وتخفف شيئاً من شاعريته الفياضة .

لكن الطريقة الحسابية النافرة تمحي منذ النشيد الثاني . ولو كان الشاعر يميل بنا اكثر الى الجمالية في بعض تعابيره ، لكان لنا من « قول الحماسة » وحده تحفةٌ شعرية بكر.

ان هوغو ، في قنة « عقاباته » « Les Châtiments » ليظل دون شاعرنا ألمًا وانتفاضاً ، ولا ادري أيكون القرم ظليماً في مقابلته بهوغو ام لا ؛ فاني لا اجد في الآداب ما يشبه حنق القرم هنا ، الا حماسة بندار اليوناني - الغنيقي ،

ولهجة الانبياء العبرانيين ، تهدد آناً ، وتنعي احياناً ،صراعق في انقضاض ، وعوالم في انهيار.

ومن خلال هذه النبرات والجهشات يطل عليك الجيل اللبناني المحتضر بعد السنين الخمس العشرة من الانتداب.

وفي هذا النشيد مقاطع تخال من اخراج « ڤاليري »

اما « قول الذكرى » ، وهو الصفحات كلها تقريباً ، فانه لبنان يخفق حياً على اصابع شاعر مؤمن بحياته ، يستنطق لغة الفنقيين ، لغته اللبنانية ، وهو بين الحماسة والجهش ، بين عظمات اجداده والتفجع على لغة كانت للغات سفر تكوين ، وأمست اليوم في القبور والنواويس ، يستنطقها عن تاريخه ، فتطل الوجوه من كل أفق فينقية لبنانية ، تروع العالم كبراً وعاوكاً واولوية . يستنطقها عن اساطير لبنان واخلاقه ، فتموج مغارة افقا ونهر ادونيس ، اسطورة يأخذ الشاعر من دمها معابد للقتيه ، وتتكسر الانوار من خلال الارز على الارض علامات من ظل توحي للفنيقي فكرة اللغة .

ويتهادى القارئ في نشيد الذكرى بين الملوك والجبالات والشوس ، بين العذارى الطهورات حاملات الجرار الى عين القرية ، والخيالة البسل لاعبي «الجريد» بين منشدي « الحدا » و«العتابا» الباكية . حتى اذا أوشك النشيد ان ينتهي تكون قد تقاسمت القلب عواطف النفس جمعاء ، فحزن وحنين الى العهود الذهبية ، وتحمس وغبطة ازاء الفخامات ، وفرح وعبادة دون العيشة الهانئة وجمالات الطبيعة، الى ما هنالك من الاحاسيس ، بحيث ترى القرم الشاعر العالمي الذي يحاذي صاحب «الانيادة» او صاحب « الالياذة » . عند هوميروس بشرية تخفق بمجموع عواطفها ، وعند القرم كذلك .

ويعلو الشاعر اللبناني اصحاب الملاحم الاولية بإنسانيته . وانك لتعجب لهذا الذي يقول « بالوطن » كيف يغمره « شعور انساني » الى جاره او الى ابعد قطر في العالم . كيف يريد هذا الجبلي اللبناني استقلال وطنه ورفعه الى الاوج دون ان يخالجه الشعور الملحمي الاولي بالانقضاض على الرأس او لورين يقتل ويذبح .

ولا أعلل روح الوطن تمتزج بروح الانسانية في قلب الشاعر الا بان « القرم »

نشأ في بلاد مستعبدة وفي قرن انساني فاذا هو هوميروس في محبة ابطاله ووطنه واذا هو فوق هوميروس في محبة الانسانية[1].

ويسترسل الشاعر في آخر النشيد في التغني بآثار بلاده وطبيعتها بما يقرب من العبادة. تترك قاديشا وبعلبك وتلوي على نشيد الشمس فتحسُّ رعشةً لا نعرفها الا عند الكونتس ده نوايل او في بعض مذاهب الشعراء السنكريتيين الذين أثروا على الشعر الفرنسي في اواخر القرن الماضي. فهذا الانفلات من الارض وهذا الشعور الفيّاض بالوهج لم تعرفهما اوربة الا في انفلاتات صاحبة « Eblouissements » فهي تقول في قصيدة « إعطاء »

« انا اترك لكم . . .
نظري وجيني ،
ونفسي المشتعلة ابدًا والسكرى ابدًا ،
حيث تغاب ايديكم ،
اترك لكم شمس وجهي الوضاءة ،
والملايين من خيوطها .

. . . . .

أترك لكم قلبي ، وكل تاريخ قلبي ،
وعذوبته البيضاء .
وفجر خدّي ، والليل الازرق الاسود ،
المنعم به شعري . »

---

١) وان هذه « الانسانية » في آثار الفرد هي التي دعت « جوقة الاستحقاق الانساني العامة » في جنيف الى منحه لقب ضابط في جوقتها وقد اوضحوا اسباب ذلك في كتابهم المؤرّخ في ١ ايلول ١٩٣٥، فاذا هم يعرفون لشارل فرد « خدماته في سبيل المجموع الانساني ؛ وتبيره ، في « الجبل الملهم » ، عن اشرف العواطف واسماها » .

ولا شك في ان هذه الناطقة الانسانية نفسها ، المترفّعة فوق الزمان والمكان ، هي التي دفعت جمعية الشعراء الفرنسيين الى تفضيل شاعر « الجبل الملهم » على مئات الشعراء المنتمين الى اربع عشرة دولة ، المتبارين في نيل جائزة ادكار بو للشعر الاجنبي باللغة الفرنسوية ، فبزّهم شاعرنا ونال الجائزة المذكورة ، على غرار ما نشرته شركة هافاس ، بتاريخ ١٧ ايار ١٩٣٥ (المشرق)

ويقول القرم للشمس :

« خذي جسدي ،
في ذهبك الزلال .
خذي البرونز والعنبر ،
من ايّ اجلادي .
والابنوس والمخمل من قاتم شعري .
والمرجان من فيّ، والعسل من عيني.
إنني اقدم ذاتي اليك ، يا شمس . »

. . .

ولو يمكن للترجمة ان تبقي خفايا الشعر ، و«ما لا يقال» من الشعر ، لاثبتُّ من هذا النشيد ما استشعره الفرنسيون في قصائد ده نوايل ، ولكنهم لم يصلوا اليه مع ايّ شاعر مثلنا مع القرم.

على اننا مهما اعتدنا عند الاوروبيين من شعر وضعي (réaliste) ، فلا يمكننا ان نقبل من شاعرنا بعض تعابير توحي الينا الآلات ، او بعض طرق في التعداد تذكرنا الطرق الحسابية ، ولكنها تكاد تغرق بما يطفو عليها من طول نفس وفيض شعور. أما التعابير الآلية فهي ، ولو قليلة في قول الذكرى، كثيراً ما تعمل على تبديد الحالة الشعرية التي يكون النشيد قد بلغ بها الاوج .

من وسائل القرم في الاخراج : الايحاء . بعد الشاعر الى تكبير القلوب وتقوية الايمان بهذا الوطن الصغير ، فيتغنى بتاريخه رجالاته يوحيها ايحاء مختلفاً وبنفس طويل هو من خصائص شاعرنا ، دون بقية الشعراء اللبنانيين ، فيرفعك الى الحقيقة على الموسيقى والصلاة وما « لا يعبّر » عنه من البيت.

ان القرم في « جبله الملهم » لمدرسة وطنية وشعر.

***

وبين « الجبل الملهم » و«بيت الحقول » شقة متسعة . ومن يقرأ ميشال شيحا على اثر شارل قرم يحسّ وتراً آخر اقلّ فخامةً واكثر نعومةً . فلبنان في « بيت الحقول » لا يخفق ، والوطنية تترك الصوت لاختلاجات نفس قلقة تتساءل وتحبّ وتحنّ.

لا يصل جوح الشعر بميشال شيحا الى اجواء شارل قرم بل يظلُّ عنها بعيداً، ولكنه يسحرك ببعده.

أقف امام «بعلبك» أو بين أظافر «ابي الهول» فاحسّ اني صغير حقير، أتلاشى من اسفل الى علو، فأدهش وأعجب وأرهب، وأحسّ كان يداً تنزل مثقلة على رأسي تقول: «إخشع». فاخشع.

هكذا أنا من «الجبل الملهم» او اللون المسيطر فيه.

وأقف امام رسم رصاصي «لبوشه» تناسقت خطوطه واستيقظ نصف يقظة، عذباً طرياً، ثم ألتفت متواضعاً بما يشيع حواله من موسيقى فأحسُّ اني اتقدم اليه من نفسي واحس انه اخي، لا تكلف بيننا ولا تباعد، فاطبع على ثغره قبلةً هادئةً ناعمة خوف ان اخدش الحلم الذي يشيعه. هكذا انا من «بيت الحقول».

على انني في بعض مقاطع من شارل قرم، مقاطع التغني بجمال الجبل وعذارى الجبل واساطيره، أشعر بما عرفته ازاء ميشال شيحا. ولكنني في قصائد شيحا لا اشعر بما عرفته ازاء القرم. صاحب «بيت الحقول» يبدو وصياً في عاطفته عميقاً. وقد تتنازعه «الرواقية» ازاء الحياة، وان يكن يرى بعض الاحيان «ساعة وردية حيث النحلة السكرى» او يستوي عنده الحب والالم فهما «ينبوع افراحه وينبوع آلامه». ولا يقدر ان يعيش بدون حب فيعاتب الله على ذلك ويقول: «يا ربي لقد خلقت لي قلباً كبيراً عليَّ»

اذا كان القرم في انفلاته يشبه الكرنتس ده نرايل ويزيدها في هذا الشعور، فان شيحا بما يضمر نفسه من عاطفة عميقة لا يطمع الا بمجاراة صاحبة «شرف المذاب» أو «القوى الابدية».

وشاعرنا متزن اللهجة يتكامل الحلم عنده على مهل كيقظة الفجر في الصباح الضبابي، هو فيلسوف يتساءل عن اسباب كثيرة ويجيب باتضاع موفق. ولقد يقع من الفلسفة في قصائد تظهر فيها مذاهب الكتب المدرسية فيعدم الفنّ شأنه في قصيدته «فلسفة». واجماعاً نرى شيحا يضرب دائماً على الاوتار العميقة الناعمة، لا يدرس العواطف فقط بل يدرس دقائق العواطف، فهو مرةً ذكرى

ومرارة حنين ، وما أدقّ الفرق بين الاثنين . وهو ملاحظ دقيق يعود من باريس وفي قلبه احاسيس نافرة لخطوط هناك خافتة . فيقدّم لنا في ابياته « البركة » راهباً في ثوبه الاسود كأنه آتٍ من « اعماق العصور الوسطى » ، او يصور لنا قصوراً ذات عتق ، تطلّ منها اطياف الاميرات اللواتي يتحدثن بالغرام على اثر حضور القداس .

وفي قصائده « الحصاد الجديد » رعشةٌ يخصب فيها السكوت والحلم وكل ما يوحي حالات القلب البشري ، بليغة في ابهامها ، ضبابية في جمالاتها . ان ميشال شيحا شاعر الدقائق في العاطفة وشاعر الايحاء . واذا يصف قطعة من الطبيعة فليقول لنا كيف تنعكس في قلبه واي تأثير تحدثه . وبينا هو في غمرة من الكآبة تراه يطلّ حاملاً مخارج من متاعب الحياة ، فاذا القصيدة ذات روح حكمية ، روح اودُّ ان تطفو على طريقة العرب في الحِكَم ، تلك الطريقة العقيمة التي تقوم على « افعل ولا تفعل » من مثل قصيدة ابن الوردي .

لم يخرج الشاعر في كل ديوانه تقريباً عن النظم المدرسي تمره الموسيقى والالفاظ والتعابير الايحائية . وانه في « ملاحظات باريس » و« الحصاد الجديد » شاعر التأملات الخصبة التي لا يُخشى الاسترسال بها ، فهي بالعكس تعطي القصيدة تلك الجالية التي تُرقي الشعور ان بجوّها الفني او بغمرتها الحكمية .

***

ويترشح « القصر العجيب » لايلي تيّان بما يسمونه « لذة التخيّل » ، على ان هذه اللذة في القصائد الاول ، اذا توفقت في الاخراج ، فتتوفق في روح القصيدة اجماعاً او في عنوانها ، لا في مقاطعها او تعابيرها منفردةً . يأخذ ايلي تيان موضوعاً كتبياً اعطاه الزمن روعة القدم وروعة الايحاء . « كالحسناء النائمة في الغاب » او « العصفور الازرق » او « ربة الشعر » . — وكلُّ من يعرف « حكايات الجن » في الفرنسية يعرف الروعة التي لهذه المواضيع — ولا يحرك شاعرنا حول هذه المواضيع كثيراً ، ولكنه اذا يحرك شيئاً فبلهجة المناجاة ، فتصف القصيدة بعضاً من حالات النفس كالامل والشوق والحنين .

اما بقيةُ الديوان فمناجاة عاطفية قد تطول وقد تقصر ، نكاد لا نؤمن

بروعتها الشعرية لولا الموسيقى التي فيها،والموسيقى احياناً هي الشعر كلُّ الشعر.

وفي الديوان قصائد اخر حكمية تقوي الايمان بالحياة، وقصيدته « نصيحة » هي تفاؤل قوي،نود لو يطفو على الكثير من القصائد المائعة عند شعرائنا بالعربية

على انك كلما تقدمت في الديوان تلألأت لعينيك الطريقة الايجابية الصافية وقلّت التراكيب المبذّة للحالات.

ويفضل التيان شيحا بقصائده الاخيرة المعنونة « يا بلادي » اذ يعود الى طريقة القرم في التغني بلبنان.

ولقد قرأت القصر العجيب منذ سنتين وهو يومئذ مخطوطة لم يكتشفها صاحب « المجلة الفنيقية » فاذا هو خاوٍ من هذه النفحة اللبنانية، فهي اذن من نظمه الحديث.

والوطنية في قصيدة « يا بلادي » صورة للكثير — ان لم اقل للمجموع — من النفوس اللبنانية التي لم تصل بعد الى ايمان شارل قرم بعبادة لبنان، ولكنها على الطريق.

وفي هذه القصيدة مقطع دقيق الوصف هو بين أرق ما قرأت من شعر. قال التيان :

« ولكن (يا بلادي) ما مثلك أحد له هذه العذوبة الجريح ،
هذه الفتنة الحزينة.
من روحٍ أُحبّت ولكنها تُركت ،
على انها ظلت تبتسم. »

لا يصل « التيان » إلى نفس القرم الطويل ، لا يصل الى تلك القوة في الاداء . على انه رغم ذلك يعرف ان يساوي بين عواطف قصائده الرصينة والقول المتّزن.

واجمالاً ، ارى ان ديوان ايلي تيان على روح جمالية لا تنفكّ تغمره الى النهاية.

***

وشكرور خلاط ? قد يكون اول من تغنى بلبنان اذا اخذنا بتاريخ

قصائده ، على ان هذه القصائد اللبنانية لا تعلو عن مستوى شعرنا العربي الظرفي. وآسف ان يكون مثل هذا الاداء لمثل هذا الاسفاف في المواضيع والفكر.

فقصيدة الاستهلال ، وشكر الكونتس ده نوايل،ومديح شبلي ملاط ، لما يوحي عكس الاعجاب . اما القصيدة الاخيرة فتضرب المقياس بهزال الابتكار وقوة الصبيانية :

فقد الشاعر واحدة من ربّات الشعر التسع ــ ويا ليته فقد الجميع ! ــ فجاء يسأل عنها اترابها . وهذا جواب احداهن بالحرف :

« . . . يا من لا يمكن اصلاحه، يا خلاط ،
أنت تريد أختنا في لفتة الشباء
اذهب فتراها تحت سقف الملاط »

وفعلاً تجيء القافية . . . واذا « خلاط » قافية « للملاط » . . .

وشاعرنا كما يظهر على بعض الاتصال بالادب العربي ، فهو يلتقي بالشاعر العربي الذي يشبه الحاجب بالنون ، ولا ينقصه الا ان يسرق مثل هذا التعبير من « شاعرنا الكبير » :

ضربتني فالتَت، لا كضربِ دار في النحو بين زيد وعمرو

وفي الديوان ، عدا هذا النمط العربي ، مجموعة بعنوان : « مقاطع نرجس » أذكر اني قرأتها في « المجلة الفنيقية » ، وكل ما يقال بها : « انها مقبولة » ولا ينبغي كثير عبقرية ولا كثير امعان ليكون الشيء مقبولاً .

اما القصيدة التي تشرف الشاعر ، او الادب اللبناني اجماعاً ، فهي « الرقص تحت الارز »

حقاً ان للشاعر خلاط ديناً على كل فنان لا يدرس هذه القصيدة درساً عميقاً ويطربها . فهي وحدها ديوان .

واذكر اني قلت لاحد شعرائنا ، ونحن نقرأها معاً :

« اني لم اشعر بمثل هذا الشعور الا عند قراءتي « الروح والرقص » لبول ڤاليري » .

في القصيدة وصف عاطفة تندفع رصينــة ثم تعلو الى الجموح على روعة فنية لا تخدشها نبرة . يظهر ان الشاعر قــد افلت من يده الى الموت حسناء غالية يذكر لها رقصها في ظلال الارز . فاذا يحجّ يوماً الى المكان ، حجّ فني الى رونشو ، يرى في انغام الناي أشجى من رؤية شاعر « الصور » فيقدّم لنا من خلال الذكرى والحنين والاعجاب ، والنشوة ، ألف صورة رجراجة ضاحكة فتانة لتلك المحبوبة الراقصة . ويطول الوصف الفني ، دون ما اسفاف ، بل يزداد ارتفاعاً كانه يتناسب وعاطفة الراقصة المتزايدة مع نشوة الرقص .

واذا ينفلت الشاعر من الموسيقى الشائعة على خطى الراقصة ، يجهش في صرخة دامية :

« ايتها الراقصة ، ذات الخطى المضطرمة ، ماذا حلّ بك ؟! »

لقد قرأت القصيدة مثنى وثلاث وسأقرأها طويلاً ، اتمتع بعاطفتها المضطرمة والحنون معاً ، واخراجها الايحائي الرفيع المتلّى المستوى ، وسأظل اجد فيها صورةً للشعر رفيعة .

***

لم يكن شعراؤنا بالفرنسية واقفين على الادب العربي ، يتروحونه ، فنشأوا شخصيين ؛ لم يعرفوا تشابيه العرب فيؤخذوا بها كغيرهم ، فنشأ شعرهم مبتكراً بعيداً عن « القوالب » التي يأخذها شاعرنا بالعربية عن الاقدمين ، لا لانه يجهلها بدوره بل لان اولئك قالوها في مثل ظرفه .

واقترن الابتكار عندهم بالثقافة فولد شعراً مخلصاً وفنياً .

اما الاخلاص ففي وصفهم بلادهم يوم لم يذكر شاعر عربي بها ، فخدموا النهضة الوطنية ، اذ تغنوا بامجاد البلاد واظهروا امانيها . واماّ الثقافة ففي درسهم النفس والتعرض للمشكل الفلسفي .

واننا ، بعد مقاطع ميشال شيحا العميقة ، لعلى كثير تفاؤل ببلوغ مكانة يحترمها الغير ، وبعد الروح الانسانية التي تغمر « الجبل الملهم » ، لعلى تطلع جريء الى أبعد من الحواجز والحدود .

هذا فضل المعين الاوربي علينا ، المعين الــذي ارجع اتجاهنا اليه بعد فترة الحيرة التي نحن فيها.

ولا يزعم زاعم ان الفضل في نجاح شعرائنا بالفرنسية يعود الى اللغــة التي نظموا فيها ، فهذه اهانة مجانية للغة العربية ، يجب ان ترد الى المقلدين او غير المبتكرين . فشارل قرم نفسه ، بعــد فاليري ولامرتين ، يتذمر من اللغــة الفرنسية ووضعيتها في الاداء الشعري ، فالعربية ـــ والفاظها غير خاصة لانهــا لم تغرق بعدُ في التآليف العلمية ـــ هي خير من الفرنسية في الاداء الشعري.

واني في النتيجة لا افهم هذا النجاح في شاعر لبناني يخفق قلبــه بالشرق واماني الشرق وينظم بلغة غريبة عنه ، الّا دليلًا على عدم تجزؤ الروح في العالم، واتمنى الّا يقال بعد اليوم : « روح غربي وروح شرقي» . ان هذه النغمة سخيـــــي قديمة ، والنفس البشرية واحدة أين كانت.